

ولدت بربرة في مدينة نيقوميديّة. وكان أبوها ديوسقورُس غنياً وثنياً متعصباً. فأحسن تربيتها بالعلوم والآداب. وبما أنّها كانت رائعة الجمال وضعها في برج حصين، وأقام من حولها الأصنام لتظلّ متعبدة للآلهة.

فأخذت تتأمل في هذا الكون وتبحث عن مبدعه. ولم ترَ في الأصنام سوى حجارة صُم لا يرجى منها خير. فأتاح لها الله أن اتصلت بالمعلم فالنتيانوس فأخذ يشرح لها أسرار الديانة المسيحية وتعاليم الإنجيل السامية. فأذعنت بربرة لهذا المرشد الحكيم وأمنت بالمسيح وقبلت سرّ العماد المقدّس، ونذرت بتوليّتها للرب يسوع.

وكانت مثابرة على الصلاة والتأمل وقراءة الكتب المقدّسة. وامرت خدامها، وبينهم مسيحيون، بتحطيم ما حولها من الأصنام. غضب أبوها وأوسعها شتماً وضرباً وطرحها في قبو مظلم، فقامت تصلي إلى الله ليقويها على الثبات في إيمانها.

وفي الغد أتى بها أبوها، مكبلة بالسلاسل، إلى الوالي مركيانوس. فاستشاط الوالي غيظاً من ثباتها في الإيمان بالمسيح، وأمر بجلدها بأعصاب البقر، فتمزّق جسدها وتفجرت دماؤها، وهي صابرة صامته.

ثم طرحوها في السجن، فظهر لها السيد المسيح وشفاهها من جراحها. وفي الصباح رآها الحاكم صحيحة الجسم مشرقة الوجه، فابتدراها قائلاً: إن الآلهة شفقت عليها وضمدت جراحها. فأجابت: "إن الذي شفاني هو يسوع المسيح ربّ الحياة والموت". فتميّز الحاكم غيظاً وأمر بجلدها ثانية حتى تتأثرت لحماتها. ثم أمر بقطع رأسها فتمت شهادتها عام 235.

صلاة إلى الذي يتألم

يا قديسة بربرة، الكثير من الناس حولي يكذبون. علميني أن أتشبه بك، فأبغض الكذب والخيانة مثلك، وأن أفضل عليها كلّ شيء، حتى الإهانة، حتى الفقر، وحتى الفشل الاجتماعي.

يا قديسة بربرة، الكثير من الناس حولي يكرهون. علميني أن أردّ مثلك الشرّ خيراً، وأن أصلي لمن يبغضونني، منذكراً أنّ المسيح قال: "إن لم تغفروا فلن يُغفر لكم"، و "بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم".

يا قديسة بربرة، أنا مُشبعٌ ألماً وقد نفذت قواي. علميني أن الألم الذي يقدم بحب، هو إحسانٌ، وأنه يستطيع أن يخلص نفساً. المسيح أحسن إليّ هكذا وهو على الصليب، وأنت اقتديت به في غرفة التعذيب. وهكذا خلص العالم، وهكذا انت هديت بلادك.

ساعديني أن اتذكّر في أية أحوال عشت: هذا يعطيني الشجاعة وسأرى أنّي أنا أيضاً، قادرٌ على عمل أشياء عظيمة، بما لديّ، وأنّي، إن لم أحبّ ما يجري، فبإمكاني تغييره بأعمالي الخفية، ولو كنت صغيراً، ولو كنت وحدي.

